من تراب الطريق! (٢٥٥) الأنا وأمل الوعى ! (*)

الفرق بين الأنا وغير الأنا هو أمل وعينا .. وإدراك الفرق بين الحي وغير الحي فى المحيط المكشوف لحواسنا درجة أخرى من الوعى والتمييز بين حال الأحياء .. وحال الأموات لا يعرفه نوع معرفة إلا الأحياء من الآدميين وحدهم بفضل نشاط الذاكرة المباشر وغير المباشر الذى يتناول ذكر الماضين وآثارهم وعالمهم .

وإذا انطفأ وعي البشر بانطفاء جنسهم - انمحى وجودهم كله بكل ما يميزه .. لأنه لا يحفظه ولا يذكره ولا يفهمه إلا حافظة ذاكرة وإدراك ووعي آدميين فقط .

فالذى يموت تموت ذاكرته معه وتنطفئ تماماً، ولكن روحه التى مهمتها إنكاء الحياة فى أجزائه وتنميتها أسبق من وجوده فلا تتأثر بموته . أما هل تتأثر بفرديته أو هل تحتفظ بتأثيرها دائماً ؟ - فغيب محض .. لا سبيل إلى معرفته من طريق التفكير وإنما من طريق الإيمان فقط . ولهذا لم يحاول العلم الوضعى أن يدخل الروح فى معطياته وموضوعاته المقصورة على ما يفترض أنه ثابت لا يزيد جوهره ولا ينقص .. طاقة كان أو مادة وعلى ما يقبل التكرار ومن ثم يقبل القياس والحساب البشريين بمكوناته ومركباته ..مسبقاً كان هذا الحساب أو تالياً.

والعلم الوضعى أياً كان وأياً كان زمانه ومكانه - لا يتجاوز موضوعه الذى يحكمه هذا الافتراض الأساسي القائم على النظر إلى الظواهر وحدها

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٦

.. ونظرته دائماً نظرة جزئية .. لعلها ترى جانباً من العام ثابت الأسس تتغير صور مكوناته باستمرار وتتكرر فى حدود إحصائية معينة أو قابلة للتعيين مقدماً .

وهذه النظرة الإحصائية الجزئية يرى وعى الآدمي أنها جزئية لا تكفيه ولا تستوعب مطالبه وأشواقه ولا تغطي واقعه كله .. وهو واقع يحس ويشعر ويوقن أنه شامل يشمل كل الوجود ظاهره وباطنه .. أوله وآخره .. بكل ما يعرفه الآدمي وما سيعرفه وكل ما لم يعرفه وما لن يعرفه .

هذا الوعي بوجود المجهول والغيب وبوجود المحتمل والجائز المتخيل إلى جانب وجود الحاصل والواقع والمحقق - أحد شطرى وعى الآدمي .. ليسا منفصلين ولا متناقضين، بل هما أردنا أو لم نرد متلازمان دائماً يتبادلان الخدمات ويتعاونان على جعل حياة الآدمي ممكنة وممتدة مهما قست عليها الظروف، وغنية بالفرص الجديدة الحسنة مهما بدا افتقارها وفاقتها ظاهرين لكل عين !

إن اليقين من انقضاء الحاضر يفتح أبواب الأمل كما يفتح أبواب القلق .. لأنه ينفتح على المستقبل والمستقبل إما غير مقطوع به، وإما غيب محض بالنسبة للأفراد وللمجاميع .. يستوى فى ذلك العالم الفذ بالعلوم الطبيعية والإنسان العادى .. كل منهما يتفاءل ويتشاءم ويعيش حياته بين الأمل واليأس فى نفسه وفيمن يحب وفيمن يتصور وما يتصور من العالم حوله . وهذا أكبر شطرى الحياة .. بل لعلّه أغلبها .. لأن كل حاضر كان مستقبلاً محجوباً تتنازعه الآمال والمخاوف . وكفة الآمال كانت غالبة إلاّ عندما يستحكم اليأس لمرض أو شيخوخة أو مأزق خانق تسد فيه جميع أبواب الفرج فى نظر الآدمي !

وجل أولئك العلماء المنصرفين إلى العلوم الطبيعية لا يعيشون من أجلها فقط، ولا ينسون قط أنهم بشر أحياء يحبون ويكرهون ويرضون ويسخطون ويحيون ماضيهم مع حاضرهم مع مستقبلهم .. يسعدون

ويشقون بأنفسهم وعقولهم وعـواطفهم وأجـسامهم وآمـالهم وأحلامهـم ومخاوفهم وهمومهم ومطامعهم وشهواتهم، ومع ذويهم وأمثالهم وأحبـائهم ومخالفيهم وخصومهم من الأحياء ومن الأموات بقدر ما تسمح به المناسبة من الالتفات أو الاهتمام أو التذكر .

فكرة للتأمل : الناس يرفضون الاقتناع حين يخسرون، ويخشون تـرك الماضي ويستمسكون به مخافة ألاّ يجدوه !